

المؤتمر العالمي الثاني لبديع الزمان سعيد النورسي
"بديع الزمان سعيد النورسي واعدادة بناء العالم الاسلامي في القرن العشرين"
27 - 29 ايلول 1992 استانبول - تركيا

ملاحح تربوية في رسائل النور

محمد رشدي عبيد*

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان
الى يوم الدين

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا رشدا

"اللهم اجعل عملنا هذا صالحاً واجعله خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً"

بدءاً أقدم اعتذارى عن هذا البحث الذى ولد ولادة صعبة وفي زحمة أعمال المؤتمر من
بحث أم، عمره الورقى خمس وستون صفحة.

عوامل شتى دفعت النورسى باتجاه الفعل التربوى.. خارجية وداخلية، غربة حادة على تل
يوشع ، وجلسة روحية خصبة على ضفاف نهر الفولغا ، وتلاوة قرآنية خاشعة في جامع بايزيد..
كلها أوقدت في ذاته صحوة روحية قادت سفينة حياته نحو تخوم ترضي توفقه العميق للخلود.. وقد
كملت الشعرات البيض الزائرة لرأسه مهرجان النور في صحوته بدلالاتها المتوهجة ووجهت
سطوة فكره بسوط روحه، كما فتحت زيارته لمقبرة ابى ايوب الانصارى آفاقا جديدة في تصويره
الغيبى ادمجته في الفضاء الآخر بكل ايجاءاته واسراره.. اما القرآن فكان يصنع في داخله معماراً
جديداً اصيلاً ويضرم نار توحدّه ويوصل في ذاته الحنين الى التبليغ الرسالى.. طبيعته الشعرية
المرهفة المتوزعة بين التوق اللامحدود وبين شدّ الواقع المحدود.. وصلاحه الذى أزدهه في زينة
الارض الخادعة، ميله الجارف للتبليغ، ألحت عليه ليتجه هناك الى "بارالا" ليحضر ادوات صناعة
تاريخ الايمان في زمانه ومكانه.. فكان رجل القدر حقاً...

ما هو مفهوم التربية في رسائل النور؟ ما هو منطلقها؟ ما أهم خصائصها؟

باختصار كان النورسى يعشق الحياة عشقاً هائلاً ويراها اكمل ثمرة للوجود ، وكان يذوب في حب الإنسان ويود لو فدا سعادته ومصيره بنفسه ..

الانسان عند النورسى لىس هيكلأ ماديا مجردا، او عقلاً منطقياً بارداً ، انه كائن حساس فريد ومتميز ، واسع الدوائر الوجودية، ذو خصائص عقلية وروحية ووجدانية واخلاقية شاملة، خليفة الارض، مبتلى بتوتر عميق بين محدودية امكاناته ولانهائية آماله في الكمال والخلود.. من سمات منهجه التربوى: شمولية التناول ، والمنهجية ، والاصالة التى عجز ادعيأؤها الوضعيون من التوفيق بينها وبين المعاصرة لقيام مناهجهم على انتقاء أهوائى، او اجتهادى غير قائم على منهج متسق وموحد وضمن ضوابط اصولية خالصة وفهم عميق لروح الامة وفطرة الانسان، والواقعية التى تنظر الى الانسان كما هو ولكنها تدفعه الى المثال ببسر وحكمة وتبصر.

أهم أبعاد التربية في منهج النورسى

البعد الايمانى: لقد ادرك النورسى ان الانسان كائن ميتافيزيقى ولايشبع حاجاته العقلية والروحية والعاطفية الا التوحيد.. فاية نظرية مادية او عقلية او علمانية لم ولاولن تقدر على اشباع هذه الحاجة العميقة.. وذلك ما اكده كثير من فلاسفة العلم ، كاريل ، رينيه دوبو ، سوليفيان، جان فوراستيه .. وعلماء نفس واجتماع معاصرون مثل وليم جيمس ، سوروكين وغيرهم.. لقد ادرك النورسى ان الفرد لآبد ان يعبد إلهأ، وذلك حق اثبته الواقع الفكرى. فقد عبد كثير من الفلاسفة بشكل من الاشكال آلهة شتى ، التيار الحيوى عند رجسون ، والتطور الخلاق عند دارون، والروح المطلق عند هيغل ، الديالكتيك في فكر ماركس ، المجتمع الذى آلهه دور كايم ، والجنس الذى قدسه فرويد ، ووجود الفرد الذى بالغ سارتر في توثينه.. وماهذه المصطلحات سوى اسماء تعبر عن افعال وسنن كونية او انسانية او حياتية او اجتماعية خلقها الله واوجدها ضمن مشيئته الكونية..

لقد ردم النورسى الاغوار الروحية العميقة لانسان زمانه بعرض فكرة القرآن عن مبدأ الانسان ومصيره وغاية وجوده وقدره وعن اسرار الكون والحياة. لقد انقذ الانسان من مشاعر فقدان الهوية ، والشعور بانقطاع الجنور ، والقلق من المصبر ، والرهبنة من القدر ، والالام ، والموت، لقد قدم له الايمان بالله واليوم الاخر والغيب القرآنى فجعل منه انسانا آخر يشعر بالطمأنينة والسلام النفسى والانسجام مع الكون ومخلوقاته، والثقة بالله، كما انقذه من التوحيد التقليدى البارد واشعل روحه بالايمان التحقيقى الفعال المفجر للطاقات المبدعة، كما اعاد لمعنى

العبادة حيويته وشموله ليستوعب كل تنفيذ صائب ومخلص لحكم شرعي، وكل فعالية حياتية او عملية ملتزمة بمنهج الله او متوجهه في مقاصدها الى الله سبحانه وتعالى..

وكانت اسماء الله الحسنى وسيلته لتحرير الفكر من الرتابة والغفلة والتقليد والجمود ،
وتحرير الحسّ من التكرار و الصور المملة، وتحرير الوجدان من غبار السامة والمشاعر التافهة
لتعيد له دهشته الاولى البكر للكون البديع ، ولتنقذ العقل من السقوط في مهاوى المحاكمات العقلية
الباردة للوقائع اليومية وتفتح له افقاً غيبياً ومشهوداً واسعاً لتفسير هذه الحقائق.. وهكذا انقذ
الانسان من الاشكالية المتأزمة في الضمير الانساني بين الامل والالم ، والواقع والطموح،
والحرية والضرورة ، والعشق والفوات ، والميل للخلود ومناوشات الزوال ، والوجود والعدم،
والواقع والمثال ، والفرد والمجتمع والتوافق والصراع..

اما في المجال العقلي: فقد فعل النورسي الكثير.. ومما فعله: تجريد الفكر من المعلومات
غير الحيوية وغير العملية ، وغير الحقيقية ، وافسح المجال لمقابلاتها الايمانية، وجعل نفسه
نموذجاً لذلك التجريد.. كما وفق في التوفيق العقلي بين ماتدركه الحواس وما لاتدركه، وذلك
بغرس الايمان بالغيب في الوعي البشري دون تصادم مع واقعات الحسّ ومقررات العقل المنطقي
السليم ونتائج العلوم التجريبية اليقينية القطعية، فوسع من افق الواقع المكاني والزمانى في وعى
الانسان.. وقد ازاح امامه بعون القرآن كل شبهات الماديين واوهمهم وظنونهم واهوائهم.. ومن
افضل ما وضعه من شروط للتوصل الى الحقيقة: الشروط الوجدانية والعقلية والروحية والاخلاقية
كتجنب الغفلة، والمعصية، والغرور، والتعصب، والوهم، والنفى اللامسؤول، والافتراض او
التظير غير العلمى او غير المتماسك.. كما دعا الى تنقية كتب التراث من التفسيرات والاراء التي
دحضها العلم بيقينيته.

وفي مجال التربية الأخلاقية:

كان من ابرز ما اصله: التهوين من قيمة الشر المنتفش في عصره باعتباره شيئاً عديمياً
وسلبياً وغير اصيل لتغيير الناس منه وتجريئهم عليه واضاعته لارادة الانسان الحرة.. وتحديد
لأطراف الفعل الاخلاقى.. ورسمه حدوده بدقة، و اشارته الى المؤثرات المادية والمعنوية المشكلة
لصوره....

وقد عمق مفردات اخلاقية عديدة كالصدق والامل والصبر والشجاعة والتضحية وجعلها
وقوداً لازدهار الانسان الاخلاقى، كما رسم خطوطا كثيرة لوصول الانسان الى رضا ربه كخط

الشكر ، والتذلل، والتوكل، والحب، والاخلاص.. وحلّ الاشكالية المؤذية بين ميل الانسان الى الانتماء لذاته او للمجتمع، واقام طلابه على معادلة مريحة متوازنة بينهما، وقد قوى اللحمة الاجتماعية ، بدعوته لطلابه للتسامح والحب، والتعاون، وعدم الاسراف والتورط في المطالب الكمالية التي يخلتها الرأسماليون ، كما وضع اسساً موضوعية جادة للحوار ، ورسم قواعد لمنع الاختلاف او تجاوزه او تخفيفه. وباختصار فقد سعى الى بناء مجتمع يقوم على الحق بدلاً من القوة ، وعلى ابتغاء رضا الله بدلاً من التزام على طلب المنافع ، ويقوم ببناءه على البر والتقوى لا على الصراع والجدل وتشد لِبِناته الاخوة الدينية الجامعة ولا تشتته العنصريات وتهذب رغبات الانسان فيه ولا تطلقها بعشوائية وفوضوية.

التربية العاطفية:

ادرك النورسى ان العواطف لا تغتال ولا تقتل ولا تصادر بل تحدّد لها الضفاف وتوجّه للبناء وتؤطر باطار من الحق والخير والعدل "نحن لا نقول لك لاتحمل ودّاً ولا حباً انما نقول اجعل محبتك لما ذكرته في سبيل الله ولوجهه الكريم" و اشار الى مكاسب التوجه الى الله في الحركة العاطفية، الايمانية والاخلاقية والنفسية والمادية ..

فاذا كانت اللذة العاطفية السائبة ممتحنة بالابتذال الحسى ومنتغصة بألم ترقب الزوال وتوقع الفراق وتوجّس الفقد وغصص الفوات ووخر أشواك الغيرة والحسد وحسرات عدم تبادل العاطفة بمثلها صفاءً ودواماً، فان اللذة العاطفية المنضبطة بالايمان لذة نقية شفافة دائمة..

وقد حلل كذلك عاطفة الكره والخوف والرغبة تحليلاً سليماً.

التربية الجمالية في فكر النورسى

احساس الانسان بالجمال فطرى أصيل ، والجمال في الكون اصيل كذلك وكلي وشامل، وغائى.. ذلك ان كل شىء في الكون ينطوى على الخير وفيه جمال وحسن. و"لمسات التجميل والتحسين رحمة مُرادة". وان هناك تفاضلاً في درجات الحسن ويميل الانسان الى الاحسن والاجمل.. اما اللذات الجمالية فهي تتسم بالتنوع والشمول، فهناك لذات حسية ، سمعية بصرية ، شمعية ذوقية، وهناك لذات جمالية فكرية وروحية وعاطفية تتذوقها العقول والارواح والقلوب.. والاستمتاع بالجمال المشروع فيه فوائد جمه اذ ترقّ احاسيس الانسان وتهذب مشاعره، وتطهر افكاره وتصفو نفسه ، وتسمو بعد ذلك نقيه طاهرة الى خالقها..

ويحث النورسى الفرد المسلم على الانضباط بالضوابط الشرعية في التمتع بالجمال لتتكامل

لذته، وتفتح امامه افاق ملونة رحبة للحسن، ولتأمن لذته من ألم التكدير وألم خوف الزوال..
وفي مقارنة لطيفة بين الادب القرآني والادب الغربي تكشف جمال الاول وفضله وعاهات
الثاني وسلبياته. يقول لنا النورسي مامعناه!

ان الادب الغربي يمجّد القوة ويؤلّه الطبيعة ويعبّد الانسان لها. وهو يثير في القارئ معانى
العبيثية والضياع، وفقدان الهوية والانتماء ويؤصلّ في وجدانه مشاعر العزلة والوحدة في الكون.
وهو بشكل من الاشكال - او وفقاً للذوق الاسلامي - غير منضبط اخلاقياً، ويعكس اهتزاز القيم
في العقل الغربى في عالم مابعد الحريين لذا فهو "قد وضع لساناً كاذباً في فم البشر وركب عينا
فاسقة في وجه الانسان وألبس الدنيا فستان راقصة". ولانه محروم من تذوق معانى العشق
الحقيقى او الحب الخالص فانه يغرر ذوقاً شهوياً عارماً في النفوس ويشبّه لقارئه الشمس بممثلة
شعراء.

ومن سلبيات منظوره للواقع، الرؤية المادية الضيقة للواقع والمتجاهلة لأبعاده الغيبية، فهو
ينكر غياب الكون او يتعامل معه تعاملاً فلسفياً بارداً او تجريبياً نفعياً، ويملاً تصور البعد الغيبي
في الذات البشرية بالظنون المزعجة والاوهام الباطلة.. وادبه الكلاسيكى الذى يركز على
الاساطير الكونية والتاريخية لم يوفق في الوصول الى مستوى الادب العالمى المؤثر من ناحية
المضمون في الاقل، للتباين الشاسع بين منظور الانسان المعاصر للعلم والعالم والقيم وبين
المنظور اليونانى او الرومانى الغابر المثقل بالروى البدائية المتخلفة للفكر والكون والحياة
واخلاقياتها "وانى للميت ان يهب الحياة" كما يقول النورسي، وهو واقع في تناقض حاد بين
اخلاقيته المزعومة ومعقوليته، وبين تصويره المثير للقطعات الهابطة في النفس والمجتمع، هذا
التصوير الذى ينسف رقابة العقل واحكام عالم الشعور، ويثير الهوى الكامن في نفس القارئ الذى
لا تغنى في تلطيف اثارته القيم الباردة غير الملزمة النسبية والمهزوزة والخجلى التى يبيها الاديب
الكلاسيكى هنا وهناك على صفحات ابداعه.. اما المشاعر التى يثيرها الادب الغربى فهى إما
حزن كثيف معتم لا تخترقه اضواء الامل في المصير الاخرى او اللقاء المتجدد مع الناس
والاشياء او السعادة في عالم اخر.. اما الفرح الذى تخلفه فهو يتسم بعدم البراءة وبدفع الى مزيد
من التجاوز على الاخرين وعلى الحق، وتكدره توقعات الفراق وآلام الفوات ومشاعر الندم..
وهو بهذه الاوصاف يشير بشكل مجمل الى سلبيات كل من المذاهب الغربية الفنية الآتية:
الكلاسيكية والوجودية والواقعية والطبيعية.

وقد وضع النورسى ادب القرآن قبالة ذلك الادب الغربى فبدا عملاقاً رصيناً متوازناً انسانياً اخلاقياً شاملاً، فهو ادب توحيدى يخلق الطمأنينة، ولا ينصب علامات الاستفهام على طريق القارئ، فلا حيرة ولا شك ولا اغتراب.. فانسان هذا الادب قد تكشفت له دلالات القدرة والحكمة والعناية والرحمة واليقين في هذا العالم وانشد بكل وعى واختيار الى منظومة الحقائق الاسلامية المتناسقة والصادقة والشاملة وامتألت نفسه رضىً وانساً ووداً وسكينة.

ادب القرآن ذو منظور اخلاقى.. انه لا يحرك ساكن الهوى، وينشد الحق والجمال الخالص ويتبنى الصدق.. فرحه فرح "لطيف برئ نزيه" يبعث على الفضيلة ويقود الى الكشف ويومئ باصبع النور الى عالم الفرح الشامل والغبطة الجذلى، وحزنه رفيع شفاف خالص متوجه الى السماء مترع بالرجاء ملئ بوعود اللقاء.. انه ادب الحقيقة بمعناها الشامل لوحى الله واجتهاد الانسان، ومنظوره للواقع يتسم بالشمول اذ يستوعب المحسوس المجرب والمخبوء المغيب في الكون والحياة والانسان، وهو يدعو الانسان الى تعامل مع هذا الواقع الكلى بمعادلة اليقين .

التربية البدنية :

لم تسمح حالات النفى والاقامة الجبرية والسجن التى عانى منها النورسى بالاهتمام الكافى بهذا البعد التربوى بشكل متكامل ولم تسمح لروحه الجهادية المتوثبة وديناميته الجسدية المتدفقة التى كانت قد وجدت لها مجالاً رحباً في الجهاد ضد العدو ان تنطلق فيما بعد لإعداد جيل اقرب الى التكامل المثالى. وحسبه تأكيد على نقاط مهمة في التربية الجسدية. منها: ضرورة تحديد كمية الطعام المتناول والنهى عن الاسراف، والربط بين السلوك الاخلاقى المنحرف والامراض العضوية، والتركيز على اهمية العلاج المادى للأمراض، والارشاد الى العبادة وبيان اهميتها لسلامة الجسد، والاشارة الى اهمية الطب الروحى والنفسى في الشفاء من الامراض، والاسهاب الرائع في بيان حكم الامراض المتنوعة.

التربية الارادية:

احترم النورسى ارادة الانسان ونظر اليها نظرة قرآنية وسطية بين المذاهب الفلسفية التى تلغى هذه الارادة تماماً او تضخمها حتى تتحدى الضرورات القدرية البشرية والكونية الصامدة، فهى ارادة جزئية يمكن تقويتها بالايمان المتمحور كنقطة استناد واستمداد، وبممارسة التدريب الارادى الخاص بالامتناع عن السلوك الفطرى المباح، والتدريب على الاعمال الايجابية، والتكيف مع الصبر على الطاعة والبلاء وعن المعصية...

وكان النورسى بالوعد الذى كان يشير اليه في السعادة الصافية الدائمة في الاخرة وبالتلويح بالتوبة في حالة الوهدة يمنع الارادة من الترهل والموت، وباساليبه الايحائية المؤكدة على كرامة الانسان وعزته وتهافت قوة اعدائه وتأبيد الله سبحانه للمؤمنين يزيد الارادة اشتداداً، وبيانه لحكم المصائب يزيد الاختيار انتعاشاً، كما كان لمنطقه العقلى المقنع وخطابه الادبى الممتع وما كان يرشد اليه من الاشكال الشعائرية والصيغ الروحية كالاستعاذة من الشيطان والاستغفار واهمال الوسوس وعدم بعثرة قوى الصبر في جوانب غير اساسية وخيالية؛ دوراً في ادامة نشاط الارادة الحرة، اما تحذيراته من اليأس والقنوط والطمع وحب الظهور والخوف والحزن والاستعجال والاستبداد بالرأى والتقليد والتسويق والراحة والاسراف والرياء والعجب والانانية فكانت تصوغ من الارادة خلقاً اخر يتحدى الوهن والتآكل والتفتت.

من وسائل التربية ومفاتيحها النورية:

- 1- الثقة المتفائلة بالانسان.
- 2- توجيه الخطاب الى العقل والقلب والروح معاً.
- 3- الدعوة الى التعلم من الطبيعة واستنباط الحكمة من كتاب الكون.
- 4- ضرب الامثال.
- 5- تجريد الخطاب التربوى من المقاصد الدنيوية ليغدو اكثر فعالية.
- 6- تقوية البصيرة الاخلاقية للمتربى ليغدو قادراً على مواجهة تيار الدمار.
- 7- خلق الحس النقدى لدى المتربى ودعوته الى الحضور الفكرى اثناء التلقى "خذ ما صفا دع ما كدر".
- 8- وضع نموذج النبى صلى الله عليه وسلم للحث على الاقتداء به.
- 9- استعماله كل وسائل التربية المتاحة لتوصيل المضامين المعرفية ومنها التربية بتفريغ الطاقة والعقوبة وبالوعظ وبالقصص بانواعها وبالقدوة الشاخصة.
- 10- ابرازه لخصوصية التربية النسوية. فقد اعتبر النساء مخلوقات طيبة مباركة، ونعى على التربية الغربية او المتغربة التى لم تر في المرأة سوى هيكلها المادى وجمالها الحسى، متجاهلة الاهتمام بتجميل روحها وهندسة خلقها وترقية شعورها وتأصيل ابداعها الفكرى والادبى والعلمى والفنى، وحذر من الجهات الخفية التى تخطط لدفع المرأة الى مساقط الرذيلة.. كما اكد

على تربية الطفل تربيةً إسلاميةً صحيحة.

من السمات المنهجية لرسائل النور:

- 1- اعتماد الكتاب والسنة الصحيحة مصدرين معصومين، ونفى العصمة والكمال عن المضامين المعرفية المتحصلة بطرق أخرى عقلية أو روحية.
- 2- تقديم اجتهادات الصحابة على ما تم بعد عصرهم من اجتهادات.
- 3- عدم جعل العلم أو العقل بما يحملانه من طوابع النسبية والقصور حكيمين على الحقائق الدينية اليقينية.
- 4- الاستشهاد بالمعطيات العلمية الزمينة لتأصيل قضايا الإيمان وتوصيل مناهج الإسلام وبيان محاسنه.
- 8- احترام الحدود الفاصلة بين عالم الغيب غير المسموح نصاً باختراقه وبين عالم الشهادة المسخر للاكتشاف والاستثمار.
- 9- التعبير الأدبي عن بعض الحقائق الدينية وبما يحمله من مجازات لغوية.
- 10- الأسلوب السهل الممتنع والغامض أحياناً والتكرار لبعض الأفكار في صيغ مختلفة والانتقال من المحسوس إلى المعلوم.

النورسى مريباً:

من الآداب اللطيفة التي التزم بها النورسى في فعله التربوي بدؤه بنفسه باستكمال نواقصها ثم الشروع في عمله، والاستعلاء على المديح والنقد، والتواضع ونقد الظواهر غير الصحيحة بالبرهان والحوار، واتخاذ التسامح شعاراً له، وعدم أخذه باجر على تعليمه، ومخاطبته الناس على قدر عقولهم، وعدم انقطاعه عن التربية حتى في السجن الذي سماه المدرسة اليوسفية، وعدله في تعليمه مع كل الطلاب حتى لو كانوا أبناء أعدائه.

وبعد فقد طرح هذا المفكر كل ما قدر له ان يطرحه بشروط عصره..

فسلام على روحه المرآتية الشفافة التي عكست لنا نقوش الإيمان ومعالمه البهيجة.

وسلام على وجدانه المولع بالجمال والكمال..

وسلام على عقله الذي جدد الطرح الايماني في تركيا.

وسلام على طلابه السابقين واللاحقين مع دعوة لهم لمزيد من التجديد والتعميق والتخصص
والتأصيل والتبليغ لمفاهيم الفكر الاسلامى.

وسلام على الحضور الطيبين..

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

* محمد رشدي عبيد: من مواليد الموصل - العراق سنة 1947. وصل على شهادة دبلوم في التربية وعمل
في مجال التعليم اكثر من خمس وعشرين سنة. له مؤلفات عدة منها "الإيمان في ضوء العلم والعقل" و"النبوة
في ضوء العلم والعقل". له أبحاث قيمة في الجمالية في الإسلام. نشر قصصاً ومقالات أدبية ونقدية وفكرية
ودينية في مجلات عربية وتركية وهندية.